ظاهرة الجبال في القرآن الكريم
«دراسة بلاغية تحليلية»

مجلة العلوم الشرعية و اللغة العربية
Journal of Shari'ah Sciences and The Arabic Language

إعداد

د. نوال بنت سعود الفرهود

أستاذ البلاغة المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

Nmalw-132@hotmail.com

ظاهرة الجبال في القرآن الكريم «دراسة بلاغية تحليلية»

المستخلص: لا يخفىٰ علىٰ متأمل القرآن الكريم ما يحويه من مواطن عديدة لحقائق علمية مختلفة محاطة بالإعجاز البلاغي المبهر. وهذا البحث اختار موضوعا مشتملا علىٰ الإعجازين في ظاهرة تشكل أهم وأبرز الظواهر علىٰ سطح الأرض، كمحاولة لتلمس بعض اللفتات البلاغية. حيث الارتباط الوثيق بين الإعجازين وفي هذا ما يدعو إلىٰ التفكير في الربط بينهما في غير هذا الموضوع ومن اللطيف تنبه بعض المفسرين لكثير من الحقائق العلمية علىٰ ضآلة الإمكانات في ذاك الوقت.

وقد التفتت هذه الدراسة المتواضعة إلىٰ ما يسمىٰ بـ«الاختيار النحوي» بحسب ما تقتضيه الأغراض البلاغية واختلاف السياق. كما تلمست ظاهرة «الترادف» في هذا الموضوع، فكل كلمة تسكن مكانها الخاص بحسب بصمتها المتفردة وإن جمعها مع غيرها المعنىٰ العام.

وكذلك لفتت الدراسة إلىٰ الصور الفنية والمفارقة التصويرية في آيات الجبال حيث تنتقل المعاني من المعقول لما هو محسوس ومشاهد يطمئن إليه الذهن ويستجلي قيمته.

الكلمات المفتاحية: الجبال، رواسي، الإعجاز البلاغي، الإعجاز العلمي.

***

The Phenomenon of Mountains in The Holy Qur'an; an Analytical Textual Study

Abstract: It is not hidden from a person who contemplates the holy Qur'an what it contains in terms of the various scientific facts surrounded by miraculous rhetoric. And this research has chosen a topic encompassing both miracles in a phenomena that is considered one of the most important phenomena on the face of this earth, in an attempt to explore some of the rhetoric used. This is due to the close connection between the two miracles, and this alone calls a person to examine the connection between the two miraculous phenomena outside the topic on hand. It is also worth mentioning that some interpreters, or *mufassireen*, were alerted to many scientific facts despite the lack of resources available then.

This humble study has turned to what is called (grammatical choice) as required by the rhetorical purposes and the different contexts. This research has also touched on the (tandem phenomena) in this topic, as every word exists in its specific place according to its unique mark even though it also includes the general meaning.

This study has also brought to attention the similes and metaphors used in the verses about mountains as the meanings shift from what is mentally perceived to tangible images and scenes that reassure the mind.

Keywords: mountains, stable, Rhetorical miracles, scientific miracles.

❊ ❊ ❊

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، أحمده حمد الشاكرين، وأجله جلال الذاكرين، والصلاة والسلام علىٰ معلم البشرية القرآن، وما فيه من إعجاز وبيان، وعلىٰ آله وصحبه، وكل من دعا بدعوته، واقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين، أما بعد:

فإن العلم من أزكىٰ القربات، التي يتقرب بها العبد إلىٰ ربه ومن أسمىٰ الطاعات التي تعلي من شأنه وترفع قدره. والخالق ﷻ أمرنا بطلب العلم النافع والتدبر والتأمل في مواضع متعددة من كتابه العزيز؛ لنزداد إيمانًا وإجلالاً لعظيم سلطانه وهيبة تدبيره.

والقرآن الكريم منبع خصب لطالب العلم، مهما كانت وجهته، ومهما اختلف مطلبه... ولعلي أجد في مثل هذا الموضوع، الذي اتخذته مجالاً لدراستي المتواضعة، ما يقربني إلىٰ الله، ولعلي أجد فيه ما يكون مقبولاً عنده تعالىٰ ذكره وعز شأنه.

ورد ذكر الجبال في القرآن الكريم في (٣٩) موضعًا، منها ما جاء بصيغة المفرد (جبل) ومنها ما جاء بصيغة الجمع (جبال)، ومنها ما جاء بألفاظ أخرىٰ تدل علىٰ أهمية الجبال ووظيفتها.

وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان يجهل حقيقة الجبال نرىٰ القرآن الكريم يشير إلىٰ عدد من الحقائق العلمية ذات الإعجاز المبهر حول هذه الظاهرة، فكيف لمنكر أن يجحد أن يكون هذا الكتاب هو كلام الله تعالىٰ خالق الجبال والأكوان، مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

وقد ذكر في القرآن الكريم كذلك ما يشير إلىٰ أن للجبال ألوانًا متعددة، فنرىٰ منها الأبيض والأحمر المتفاوت الدرجات والأسود، انظر لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧).

ولا عجب أن خالق هذه الجبال الشامخة الراسية قادر علىٰ نسفها وفنائها، قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ (طه:١٠٥-١٠٧).

ونظراً لأهمية ظاهرة الجبال علىٰ الأرض، وشغلها حيزاً من القرآن الكريم وقع اختياري علىٰ الآيات القرآنية الكريمة التي تتناولها لتكون موضوعًا لدراستي، وذلك بعنوان: (ظاهرة الجبال في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية)، راجية من الله العون والتيسير، وأن يكون عملاً مقبولاً.

*** أهمية البحث وسبب اختيار الموضوع:**

تتمثل أهمية هذا البحث في أنه يتناول موضوعًا من الموضوعات التي

تناولها القرآن الكريم.

ومن الأسباب التي دفعتني لهذا الموضوع ما يلي:

١ – ورود الجبال في الآيات القرآنية الكريمة سواء فيما يخص وجودها الراسخ علىٰ هذه الأرض، أو بيان أوضاعها يوم القيامة.

٢ – عدم وجود دراسة بلاغية مستقلة دارت حول هذا الموضوع.

٣ – تعلق هذا الموضوع بظاهرة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، تلك التي لم تبخل ولن تبخل علىٰ أي باحث مخلص بعطاء يستجلي به بعض ما يكمن فيها من قيم وأسرار.

٤ – ارتباط هذه الآيات بالإعجاز العلمي، فمع استجلاء الدراسات الجيولوجية لكثير من أسرار الجبال، إلا أنها كلها جاءت مصداقًا لما جاء به القرآن الكريم.

❋ أهداف البحث:

١ – محاولة كشف بعض الأسرار البلاغية لإعجاز القرآن الكريم في وصف الجبال وبيان عظمتها.

٢ – تلبية رغبة خاصة لدىٰ الباحثة في أن تضم إلىٰ مكتبة الدراسات القرآنية بحثًا آخر يضاف إلىٰ كتابيها للماجستير والدكتوراه اللذين دارا حول موضوعين من موضوعات هذا البيان القرآني المعجز، وهو وحده ﷻ من وراء القصد.

*** الدراسات السابقة في مجال البحث والمتصلة به:**

إن الدراسات في علوم البلاغة، وبخاصة بلاغة القرآن الكريم كثيرة جداً، غير أني لم أعثر علىٰ دراسة سابقة مستقلة في هذا الموضوع، فليس هناك -فيما أعلم- مما يتعلق به سوىٰ إشارات موجزة متناثرة في كتب التفسير، بالإضافة لبعض الكتب التي تدرس موضوع الجبال من الناحية الجيولوجية البحتة، وبعض المقالات المنشورة في مجلات علمية، أو في بعض مواقع الشبكة العنكبوتية.

*** منهج البحث:**

سوف يقوم منهج البحث - إن شاء الله تعالىٰ - علىٰ المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث أقوم بتتبع الآيات القرآنية التي دارت بصورة أو بأخرىٰ حول هذا الموضوع، ثم أقوم بتحليلها تحليلاً بلاغياً وأسلوبياً يشمل كل خصائصها المعجمية والتركيبية والتصويرية.

*** محتويات البحث:**

يشمل المقدمة، والتمهيد، وثلاثة مباحث، والخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع، علىٰ النحو الآتي:

- **المقدمة.**
- **التمهيد.**
- **المبحث الأول: المبحث اللفظي.**

- **المبحث الثاني: من خصائص البناء التركيبي.**
- **المبحث الثالث: التصوير الفني، وفيه:**
  - أ) الصورة البيانية.
  - ب) المفارقة التصويرية.
- **الخاتمة،** وفيها: ذكر لأهم النتائج والتوصيات التي انتهت إليها الدراسة.
- **فهرس المصادر والمراجع.**

* * *

التمهيد

يعرف الجبل بأنه كتلة صخرية بارزة فوق سطح اليابسة بشكل واضح، ولها وتد ممتد في الطبقات تحت السطحية، ويطلق مصطلح الجبل عادة على الارتفاعات التي تزيد عن ستمائة متر فوق مستوى سطح البحر، وإن كان هذا الارتفاع ليس محدداً لأنه أمر نسبي، بحسب اختلاف تضاريس الأرض المحيطة به، ففي الأرض المنبسطة يكفي نصف هذا الارتفاع ليوصف بالجبل، وقد تكون الجبال في بعض الأماكن منفردة عن بعضها البعض، وفي أماكن أخرى تكون على شكل سلاسل جبلية ممتدة طولاً وعمقاً[1].

وظاهرة الجبال مذكورة في القرآن الكريم في مواضع مختلفة ومتعددة؛ منها ما يصف شكلها أو فائدتها أو وظيفتها أو ألوانها، واختلاف أوضاعها. فالجبل مخلوق من مخلوقات الله، يظهر لنا بمجرد النظر إلى صموده وارتفاعه الشاهق عظمة خلق الله ﷻ، فكيف إذا ما عرفنا أن داخل هذا الجبل حركة لا يعلمها إلا الله وله وظائف تتنوع من رأسه إلى جذره.

ولا تعجب أن تقرأ في الآيات الكريمة ما يشير إلى أن هذه الجبال على

(١) انظر: مبادئ الجغرافيا الطبيعية. بحيري، د.صلاح الدين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، (ص١٤٨).

ضخامتها إلا أن لها لغة تسبيح مثلها مثل الإنسان العاقل المكلف ومثل كثير من المخلوقات، انظر لقوله تعالىٰ: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٩).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (ص:١٨).

وقوله عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (سبأ:١٠).

إنها لغة تسبيح مشتركة بين المخلوقات، لكن بلغة لا يعلم كيفيتها إلا خالقها عز شأنه.

كما أن هذه الجبال تسجد لله سبحانه إجلالاً وخشية، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج:١٨).

ويتصدع من خشيته قال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١).

وقال في موضع آخر: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ

﴿إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣).

وكما أن للجبل شكلاً خارجيًا، له وظيفة داخلية كذلك، انظر لمثل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦-٧).

فالإنسان قديمًا عرف الجبال، واستفاد منها، ولكن لم يكن يعرف أن هذه الجبال معجزة عظيمة تنطق عن إبداع رباني عجيب إلا عندما بدأت الدراسات العلمية الجيولوجية، التي توصلت من ضمن ما توصلت إليه إلىٰ أن لهذه الجبال امتدادات هائلة في جوف القشرة الأرضية إلىٰ مسافات عميقة، وهذه الجذور إما أن تكون من مادة الجبال الظاهرة، أو أكثر كثافة منها[1]، وهذه الحقيقة - بلا شك - لم تكن ميسرة في القرون الماضية، ومع ذلك وجدنا وصفها كما جاء في سورة النبأ.

وهذه الجذور تمتد داخل عمق الأرض أضعاف ما نراه في ظاهرها، تزداد عمقًا كلما ازداد ارتفاع الجبل؛ ليحدث الثبات والاستقرار الذي يهيئ الأرض للعيش والسكن. انظر لمثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

وقال عز شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء:٣١).

---

(١) الجبال أسرار وإعجاز د. هارون أحمد محمد، موقع الهيئة العالمية للكتاب والسنة: https://goo.gl/y5reUS

وقبل أن يعرف الإنسان السكن كانت الجبال أحيانًا كثيرة مسكنًا له، وكذلك لكثير من الحيوانات والحشرات، انظر لمثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٧٤).

وقال في موضع آخر: ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر:٨٢). وقال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل:٦٨).

وعرف الإنسان هذه الجبال صامدة راسية بشموخ يستدعي الجمال والهيبة في وقت واحد، ولكن السياقات القرآنية أشارت في مواضع مختلفة إلىٰ أن هذه الارتفاعات الهائلة ستدك وتنسف بل سوف تتساوىٰ بالأرض سرابًا؟!

قال تعالىٰ: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (الواقعة:٥)، وقال: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (الحاقَّة:١٤)، وقال: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾ (المزمل:١٤)، وقال: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (النَّبأ:٢٠) بعد أن كانت رواسي وأوتادا؟!

* * *

المبحث الأول
المبحث اللفظي

التنوع في تسمية هذه الظاهرة بين (الجبال)، و(الرواسي) تبعاً لاختلاف السياق:

إن المتأمل في الآيات التي وردت فيها «الجبال» وهي (٣٩) آية أو «الرواسي» التي وردت في (٩) مواضع يجد بعضاً من الاختلاف بينها أو التشابه في بعض الألفاظ، فالآيات التي وردت فيها «الجبال» علىٰ سبيل المثال نجدها في قوله تعالىٰ:

١ - ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٧٤).

٢ - ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر:٨٢).

٣ - ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل:٦٨).

٤ - ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل:٨١).

٥ - ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ (الشعراء:١٤٩).

٦ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧).

٧ - ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ (ص:١٨).

٨ - ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية:١٩).

أما استخدام «الرواسي» فقد ورد في القرآن الكريم في المواضع التالية:

قال تعالىٰ:

١ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:٣).

٢ - ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (الحجر:١٩).

٣ - ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

٤ - ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء:٣١).

٥ - ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:٦١).

٦ - ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان:١٠).

٧ - ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (فصِّلت:١٠).

٨ - ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (ق:٧).

٩ - ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴾ (المرسلات:٢٧).

ومما ذكر في المعاجم حول كلمة «جبل» أنه اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم وطال من الأعلام والأطواد، والجمع أجبل وأجبال وجبال، وأجبل القوم: صاروا إلىٰ الجبل، وتجبلوا: دخلوا فيه.

ويقال: أجبل إذا صادف جبلاً من الرمل، وهو العريض الطويل. ويقال الجبل: سيد القوم وعالمهم. ورجل مجبول: عظيم، علىٰ التشبيه بالجبل، وجَبْلَة الأرض: صلابتها. والجُبْلة، بالضم: السَّنام. والجَبْلُ: الضخم وامرأة جَبْلةٌ ومجْبالٌ: غليظة[1].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ت: عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مادة (ج.ب.ل) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

أما ما ذكرته المعاجم حول كلمة «الرواسي» فهي من رسا الشيء يرسو رسواً ورسا ثبت، وأرساه هو. ورسا الجبل يَرْسُو إذا ثبت أصله في الأرض، وجبال راسيات والرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ. ورست قدمه: ثبتت في الحرب. ورست السفينة ترسو رسواً: بلغ أسفلها القعر وانتهىٰ إلىٰ قرار الماء، فثبتت وبقيت لا تسير والجبال الرواسي والراسيات هي الثوابت[1].

فمعنىٰ الجبل يدور حول الطول والعظم والصلابة، أما معنىٰ (الرواسي) فيميل لمعنىٰ التثبت والترسيخ.

والمتأمل لما ذكر في كتب التفاسير عن معنىٰ الكلمتين يجد أن الرواسي بمعنىٰ الجبال انظر مثلاً لتفسير الطبري لقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (فصِّلت:١٠).

«يقول - تعالىٰ ذكره - وجعل في الأرض التي خلق في يومين جبالاً رواسي وهي الثوابت في الأرض من فوقها، يعني: من فوق الأرض علىٰ ظهرها»[2].

وانظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ت: محمد علي النجار (٣/ ٣٦٢).

(١) انظر: لسان العرب مادة (ر.س.ىٰ).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ت: صدقي جميل العطار، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (٢٤/ ١٢٠).

ويقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل:٦١).

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ «أي جبالاً شامخة تُرْسي الأرض وتُثبتها لئلا تميد بكم»[(١)].

وفي الجلالين في تفسير قوله تعالىٰ: «من آية الرعد»، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ﴾ «بسط الأرض ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت»[(٢)].

ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل:٦١)، وجعل لها رواسي «يعني جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير القرشي، دار الفكر، لبنان، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، (٣/ ٣٧١).

(٢) تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، قدم له وعلق عليه فضيلة العلامة محمد كريم راجح، دار القلم، بيروت، لبنان، (ص٣٢١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، (١٣/ ١٩٩).

أما ابن عاشور فيقول في التحرير والتنوير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥). «وهذه المخلوقات لما كانت مجبولة كالتكملة للأرض، وموضوعة علىٰ ظاهر سطحها عبر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء علىٰ الأرض، ولعل خلقها كان متأخراً عن خلق الأرض، ولعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار، وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه. ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض، كما أن الأمطار تهاطلت فكونت الأنهار، فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء بيناً، وإطلاقه علىٰ وضع السبل والعلامات تغليب... (ورواسي) جمع راس، وهو وصف من الرسو بفتح الراء وسكون السين، ويقال بضم الراء والسين مشددة وتشديد الواو، وهو الثبات والتمكن في المكان. ويطلق علىٰ الجبل (راس) بمنزلة الوصف الغالب، وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض، والميد: الاضطراب»[1].

فجل كتب التفاسير المتقدم منها والمتأخر تشير إلىٰ أن الرواسي بمعنىٰ: الجبال الثوابت. كما ذهب بهذا الرأي أيضاً بعض علماء العصر الحديث

(١) انظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (١٤/ ١٢٠، ١٢١).

ودارسيه، انظر مثلاً لما يقوله الكحيل: سمىٰ القرآن الجبال بالرواسي تشبيها لها بالسفينة التي ترسو ويغوص جزء كبير منها في الماء. وهو ما تفعله الجبال فهي ترسو وتغوص في قشرة الأرض خصوصا إذا علمنا أن القشرة الأرضية تتألف من مجموعة من الألواح العائمة علىٰ بحر من الحمم والصخور المنصهرة(١).

بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ أن الرواسي تختلف عن الجبال، فمنهم من قال:

١ - إن الرواسي هي أقدم الجبال وهذا ما نفهمه من قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ (فصِّلت:١٠)(٢).

٢ - ومنهم من ذهب إلىٰ أن الرواسي هي عبارة عن القوة المغناطيسية، فالرواسي ليست مرادفة للجبال وإنما هناك فروق بينهما، فالجبال نصبت والرواسي ألقيت، والنصب للجبال لأنها مادة من صخور، والإلقاء للرواسي لأنها القوة المغناطيسية(٣).

٣ - ومنهم من ذهب إلىٰ أن جزءًا من تلك الجبال قد دخل في باطن

(١) انظر: مقال الجبال والتوازن الأرضي، موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العلمي:
http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-10-20/108-2010-02-27-13-56-47

(٢) الجبال في القرآن الكريم، د. حسني حمدان الدسوقي، موقع شبكة الألوكة:
http://www.alukah.net/sharia/0/72873

(٣) انظر: الجبال والرواسي، موقع المعهد الإسلامي للدراسات الاستراتيجية المعاصرة:
http://www.islamicforumarab.com/vb/t2123

الأرض، وما تبقىٰ فوق الأرض ولم يدخل فيها هو ما يمكن أن تطلق عليه اسم الجبال وهو الجزء الذي نستطيع أن نراه، ونسكنه، إلخ. وأما الأجزاء الداخلية فهي المسماة بالرواسي وربما يؤكد هذا ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (النَّازعات:٣٢)[١].

٤ – ومنهم من ذهب إلىٰ أن الرواسي صفة للجبال، حيث وردت الجبال بلفظها الصريح ٢٩ مرة، ووردت بصفتها ٤ مرات، ووصفها بالرواسي لما بينها من العلاقة مع السفينة، فكما أن للسفينة كثافة أقل من كثافة الماء لتطفو، فكذلك للجبال كثافة تقل عن كثافة المنصهر البركاني تحتها[٢].

وفي الحقيقة أن التأمل في الآيات القرآنية الكريمة يكشف لنا عن فروق ملموسة بين السياقات التي وردت فيها كلمة «جبال» وبين الأخرىٰ التي وردت فيها كلمة «رواسي» من ذلك:

١ – بينما استخدم السياق القرآني مع الرواسي «الإلقاء» و«الجعل» لم يرد فعل الإلقاء مع الجبال، انظر مثلاً لقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق:٧).

وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

(١) موقع د. رشيد الجراح، مركز اللغات، جامعة اليرموك:
http://www.dr-rasheed.com/2013/08/blog-post_4.html

(٢) انظر: قناة أ.د. صبري الدمرداش، علىٰ موقع اليوتيوب:
https://www.youtube.com/user/aldmrdash

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان:١٠).

وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

والجعل في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء:٣١).

٢ - استخدم السياق القرآني حرف الجر «في» مع الرواسي، انظر لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (الحجر:١٩).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:٣).

ولم يرد ذكرها مع الجبال بل استخدم مع «الجبال» حروفًا أخرىٰ كـ«عن» و«من» و«علىٰ»، انظر لقوله تعالىٰ علىٰ سبيل المثال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ (طه:١٠٥)، وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ (الشعراء:١٤٩)، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

وكذلك وردت مع الجبال «ياء» النداء في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (سبأ:١٠).

٣ - وردت كلمة «جبال»معرفة كما وردت نكرة انظر مثلاً لقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النَّبأ:٧). وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (النَّازعات:٣٢). وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ (الغاشية:١٩). وانظر إليها نكرة في قوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١).

أما الرواسي فلم ترد إلا نكرة، انظر لمثل قوله تعالىٰ: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل:٦١). وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (الأنبياء:٣١).

٤ - عطف جملة «الرواسي» علىٰ عدم رؤية عمد للسماوات، وهذا ورد في قوله تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان:١٠).

أما الجبال فقد سبقت في مواضع عديدة بـ«انظر» والرؤية، أو متلوة بـ«رأيته» ومن أمثلة ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣).

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧).

قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١).

٥ – حينما يستخدم السياق القرآني «التشبيه» فإنه يستخدمه مع «الجبال» دون «الرواسي» ولعل السبب في ذلك – والله تعالىٰ أعلم – أن التشبيه يستلزم وضوح الصفة في المشبه به، والوضوح هنا بمعنىٰ الظهور، والجبال تضاريس واضحة للعين، انظر مثل ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (هود:٤٢).

ما أريد أن أقوله بعد ذكر هذه الفروق أن الأمر المؤكد الذي نؤمن به هو أن القرآن الكريم لا يكرر كلمات تحوي المعنىٰ نفسه، وفي السياق نفسه، وإنما لابد من اختلاف فيما بينها يتنوع باختلاف السياق، واستخدام السياق القرآني للجبال في مواضع، وللراسيات في مواضع أخرىٰ حتىٰ وإن كانت الراسيات جزءًا من الجبال أو صفة لها – والله تعالىٰ أعلم – لا بد وأن يكون من أجل

اختلافات تخفىٰ علينا نحن البشر - فخلق الجبال وما سبقه من خلق السماوات والأرض لا يعلمه إلا الله - ولكن ما أستطيع قوله هو أن للرواسي دلالة خفية، أو علىٰ الأقل دلالة أكثر خفاء من خلق الجبال، وذلك لأن السياقات - كما ذكر سابقًا - استخدمت الرؤية واتخاذ المسكن والنداء والتعريف مع الجبال دون الرواسي.

والجبال ليست نوعًا واحداً، ولا تتكون بالطريقة ذاتها وهذا ما تشير إليه تعدد السياقات واختلافها.

ولعلي أجد في هذا المبحث متسعًا للإشارة إلىٰ أن السياق القرآني قد يعبر بكلمة «الجبل» في مواضع، وكلمة «الطور» في مواضع أخرىٰ وهذا ما يسميه بعض البلاغيين بـ «تعاور المفردات»[1] حيث تستعمل مفردة في موطن، ويستعمل غيرها في موطن آخر.

ومن ذلك مثلاً ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٧١).

في حين قال ﷻ في مواضع أخرىٰ:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني د. فاضل صالح السمرائي، دار عمار، ط٢، ١٤٢٢هـ، (ص١٢٢).

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٦٣).

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء:١٥٤).

فاستعمل (الطور) في آيتي البقرة والنساء، واستعمل (الجبل) في آية الأعراف، ولعل السبب في ذلك - والله تعالىٰ أعلم بمراده - أن التهديد في آية الأعراف أشد فاستعمل لفظ (الجبل) وذلك لأن (الجبل) - كما سبق - اسم لما طال وعظم من أوتاد الأرض[1]. ولا يشترط في الطور ذلك. فالجبل أعظم من الطور؛ ولذلك يجيء في مقام الشدة والهول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل)، وذلك نحو ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣).

فانظر كيف اختار الجبل علىٰ الطور للدلالة علىٰ عظم التجلي وأثره.

ولذلك أيضاً ذكر لفظ الجبال دون الأطوار في ختام التهويل والتعظيم والدلالة علىٰ القدرة التي ليس لها حد، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النَّبأ:٦-٧).

(١) انظر: لسان العرب (ج.ب.ل).

وقال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (النَّازعات:٣٢-٣٣)، وقال في يوم القيامة: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (التَّكوير:٣)، وقال: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية: ١٩)، ففيها من الدلالة علىٰ العظم ما ليس في اسم الطور.

ولعل في ذلك ما يناسب استعمال (نتقنا) مع الجبل، واستعمال (رفعنا) مع الطور؛ وذلك لما في النتق من التهديد الشديد والتخويف، فإن النتق أشد وأقوىٰ من الرفع، ففي معنىٰ النتق – كما جاء في لسان العرب – الجذب والزعزعة والاقتلاع، ومعناه أيضًا: هو أن يقلع الشيء، فيرفعه من مكانه ليرمي به، هذا هو الأصل[1] في حين أن الرفع ضد الوضع.

فأنت ترىٰ أن في نتق الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس في رفع الطور، فإنْ يزعزع الجبل ويقلع من مكانه ويرفع ليُرْمىٰ به وكأن هناك قاذفًا يقذف به عليهم، أمر مرعب ومخيف، وفيه من القوة والشدة ما ليس في رفعه، فاستعمل (الجبل) بدل (الطور) و(نتقنا) بدل (رفعنا) لأن المقام يقتضي ذلك، فإنه أفاض في ذكر صفات بني إسرائيل الذميمة ومعاصيهم في الأعراف، ما لم يُفِضْه في سورتي البقرة والنساء، فاقتضىٰ أن يكون كل تعبير مكانه[2].

ويقول تعالىٰ في سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ (القارعة:٥).

---

(١) انظر: لسان العرب (ن.ت.ق).

(٢) انظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (ص١٢٢، ١٢٤).

حيث قرن السياق بين حال الناس وحال الجبال، كأنه تعالىٰ نبه علىٰ أن تأثير تلك القارعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها[1].

ويقرب من هذا أيضًا ما جاء في سورة المعارج من قوله تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ (المعارج:٩).

* * *

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، لبنان، (٣٢/ ٧٢)، وانظر: البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد، علي محمد، د. زكريا التوني، د. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (ص٥٠٤).

المبحث الثاني
من خصائص البناء التركيبي

الذكر والحذف:

يتكون الأسلوب العربي - كما هو معروف - من كلمات وجمل وينشأ من ذلك بناء متكامل ينقل المعنىٰ إلىٰ السامع أو القارئ بشكل تام وسليم.

واللغة العربية مثلها مثل باقي اللغات الإنسانية يوجد فيها الحذف - وإن كان في اللغة العربية أكثر وضوحًا وتركيزاً - كنوع من الإيجاز، يقول عبدالقاهر الجرجاني مبيناً أهمية الحذف: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترىٰ به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ»[1].

وكما أن الحذف ظاهرة معروفة في اللغة العربية، فكذلك أيضًا قد تذكر كلمة من الممكن حذفها لأجل غرض من الأغراض البلاغية التي تستدعي ذلك.

---

(١) دلائل الإعجاز، عبدالقادر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، ت: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، (ص١٤٦).

والذكر والحذف من الظواهر الموجودة في القرآن الكريم، ومنها علىٰ سبيل المثال ما يخص موضوعنا هذا، انظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧).

حيث نلحظ الحذف في قوله:

١ - ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ (فاطر:٢٧)، أي ذو جدد، فيكون فيها حذف للمضاف وإقامة المضاف إليه مقامه[١].

٢ - ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧) علىٰ تقدير أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها كاختلاف ألوان الثمرات، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك؛ أي كاختلاف ألوان الثمرات وجدد الجبال، فمن الناس الأبيض والأحمر وكذلك الأسود، فيكون في الآية إيجاز حذف جملة (كاختلاف ألوان الثمرات).. وجملة أخرىٰ (كاختلاف ألوان الثمرات وجدد الجبال).. وقد تم التعويض عنها وإيجازها بكلمة (كذلك)[٢].

---

(١) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، (٣/ ٣٠٧).

(٢) انظر: مقال الماء النازل من السماء وتأثيره علىٰ الجبال، للمهندس أحمد عامر الدليمي، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

https://goo.gl/NHFz7t

كذلك يوجد ذكر لكلمة «غرابيب» مع كلمة سود – كما مر بنا سابقًا – في قوله تعالىٰ: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ تأكيداً للعتمة الموجودة في اللون الأسود[1].

وانظر قوله تعالىٰ من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

فما دلالة ذكر الجبال مع السماوات والأرض مع أن الجبال من الأرض؟

ذكر تعالىٰ الجبال لأنها من أعظم مخلوقات الأرض، هذا أمر، والأمر الآخر أن الأمانة ثقيلة وذكر الجبال -علىٰ تصور الإنسان لعظمتها ووزنها- مناسب لثقل الأمانة[2].

ومما جاء فيه ذكر لجملة، وحذف لها في سياق آخر جملة «أن تميد بكم» وجملة «أن تميد بهم» انظر لمثل ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء:٣١).

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: موقع إسلاميات: islamiyyat.3abber.com/post/216310

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان:١٠).

وقال تعالىٰ في سياقات أخرىٰ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الرعد:٣).

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ (الحجر:١٩).

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (النمل:٦١).

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (فصّلت:١٠).

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (ق:٧).

الميد – كما قال أبو هلال العسكري– هو الميل مرة يمنة ومرة يسرة والمقصود به الاضطراب والفرق بينه وبين الميل، أن الميل يكون في جانب واحد، والميد ميل من الجانبين[1].

(١) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ت: حسام الدين القدسي، (ص١٧٧).

والمتأمل في الآيات السابقة يجد ذكراً لجملة «أن تميد» في آيات دون أخرىٰ، ولعل السبب في ذلك – كما قال د.فاضل السامرائي– أنه إذا أراد بيان نعمة الله علىٰ الإنسان يقول «أن تميد بكم» أو «تميد بهم»، وإذا كان السياق سياق بيان عجيب صنعه تعالىٰ – في الكون – تأمل الآية من غيرها[1].

ففي سورة النحل مثلا سبقت الآية المذكورة بآيات فيها تعداد لنعم ظاهرة، انظر مثلا لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: ٥-٨)، وما يتلوها من الآيات. والمتأمل يجد أنها جميعًا تعدد نعمًا أسبغها الله ﷻ علىٰ الخلق فيها الأنعام، والغيث وما يتلو نزوله من نعم وثمرات، وتسخير الليل والنهار والنجوم والبحر إلىٰ أن يصل إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

والدليل علىٰ أن السياق سياق تعداد للنعم قوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (النحل:١٨).

أما الآيات التي وردت من غير ذكر «أن تميد بكم» أو «بهم» فتكون ضمن

(١) انظر: موقع منتديات ستار تايمز: www.startimes.com/f.aspx?t=32853574

سياق يتناول قدرة الله ﷻ في صنع هذا الكون بما يحوي انظر مثلا للسياق الذي وردت فيه آية فصلت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: ١٠-١٢).

وانظر كذلك إلىٰ سياق آية ق: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٦-٨).

فالسياق يذكر ما يدعو إلىٰ التعجب من قدرته – عز شأنه – في إبداع صنع هذا الكون بدقة مدهشة.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ: ٦-٧).

فذكر الجبال هنا مناسبة دعا إليها ذكر الأرض وتوضيح ذلك في الآتي:

١ – تشبيه الأرض بالمهاد الذي يكون داخل البيت، فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع مع ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت، وجبال الأرض مشبهة بأوتاد البيت تخييلاً للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده.

٢ – قد يخطر في الأذهان أن كثرة الجبال الناتئة علىٰ وجه الأرض لا

تناسب جعل الأرض مهاداً، فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مستملحًا، فيجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها، بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمة لتعديل سبح الأرض في الكرة الهوائية؛ إذ نتوء الجبال علىٰ الكرة الأرضية يجعلها تكسر تيار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل تياره حتىٰ تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة.

٣ - كثرة منافع الجبال لسكان الأرض؛ فمنها مسايل الأودية، وقرارات المياه، ومراعي الأنعام، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق؛ ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض[1].

التقديم والتأخير:

إن مبحث التقديم والتأخير من المباحث التي نالت حظًا وافراً من اهتمام البلاغيين وكذلك النحاة منذ بداية الكتابة عن أهمية اللغة العربية وإلىٰ وقتنا الحاضر، حيث عد العلماء مخالفة الترتيب المعهود في الكلمات والجمل من أبرز ما يمكن أن يستخدم لإضفاء الرونق والجمال علىٰ الكلام، وهذا التقديم والتأخير في الأساليب العربية - بلا شك - يكون لأجل تحقيق أغراض يقصدها المتكلم وهذه الأغراض تكلم عنها البلاغيون كثيراً وهي تختلف باختلاف السياق، يقول عبدالقاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز»

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥).

متحدثاً عن قيمته: «هذا باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء وحُوّل اللفظ من مكان إلى مكان»(١).

والتقديم والتأخير من الأساليب الواردة في السياقات القرآنية الكريمة على تعدد موضوعاتها، ومنها هذا الموضوع الذي بين أيدينا، من أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٩).

التسبيح هو العبارة التي ينجي الله بها من المواقف، وقد نجى الله ﷻ بسببه يونس عليه السلام، عندما كان في بطن الحوت، وفي ظلمات البحر قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الصَّافات: ١٤٢-١٤٤).

وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمده تعالى - ومنها الجبال - قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ (الإسراء:٤٤).

وقد ورد التقديم والتأخير في هذه الآية الكريمة في موضعين:

(١) دلائل الإعجاز، (ص١٠٦).

١ - في قوله تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ ﴾ (الأنبياء:٧٩) فـ(مع) هنا ظرف متعلق بفعل (يسبحن) وقد قدم علىٰ متعلقة للاهتمام به لإظهار كرامة داوود[١].

٢ - في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ ﴾ (الأنبياء:٧٩) حيث نجد تقديمًا للجبال علىٰ الطير، وهذا التقديم - والله تعالىٰ أعلم بمراده - لبيان القدرة الإلهية، يقول الزمخشري: «قدم الجبال علىٰ الطير؛ لأن تسخيرها له وتسبيحها أعجب، وأدل علىٰ القدرة وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد والطير حيوان ناطق»[٢].

ويقول السعدي في تفسيره: «وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحًا وتمجيداً، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحداً من الخلق، فكان إذا سبح وأثنىٰ علىٰ الله، جاوبته الجبال الصم والطيور البهم»[٣].

ومما ورد فيه التقديم قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١١٩).

(٢) الكشاف (٢/ ٥٨٠)، انظر: التفسير الكبير (١٢/ ١٩٤)، البحر المحيط (٦/ ٣٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، حققه محمد زهري النجار، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث والدعوة الإرشاد، الرياض، ١٤٠٤هـ، (٥/ ٢٥٠).

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧).

ويظهر في الآية تقديمان:

١ - في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾.

فكلمة «جدد» مبتدأ، خبره «من الجبال» وتقديم الخبر للاهتمام وللتشويق لذكر المبتدأ حثًا علىٰ التأمل والنظر[١].

٢ - في قوله سبحانه: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ مقتضىٰ الظاهر هنا أن يكون غرابيب متأخراً عن سود لأن الغالب أنهم يقولون: أسود غربيب، كما يقولون: أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقولون: غربيب أسود وإنما خولف ذلك لرعاية الفواصل المبنية علىٰ الواو والياء الساكنين[٢]، يضاف إلىٰ ذلك أن تقديم (غرابيب) علىٰ (سود) فيه توكيد علىٰ أنه حالك السواد مما يؤكد أن هذه الأجسام تعد أجساماً معتمة تماماً، فهي مثالية في سوادها وعتمتها، لذلك فهي مثالية أيضاً في امتصاصها للضوء، فلا تعكس أي لون ساقط عليها[٣].

وانظر كذلك إلىٰ الترتيب في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٢).

(٢) انظر: المرجع السابق (٢٢/ ٣٠٣).

(٣) انظر: مقال الماء النازل من السماء وتأثيره علىٰ الجبال، للمهندس أحمد عامر الدليمي، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:
https://goo.gl/NHFz7t

﴿خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠).

حيث ورد الاستفهام عن الكيفيات مرتبًا على النحو التالي: كيف خلقت، كيف رفعت، كيف نصبت، كيف سطحت؛ وذلك - والله أعلم - لظهور أمر الإبل عند العرب[1] فالإبل أموالهم ورواحلهم، ومنها عيشهم ولباسهم ونسج بيوتهم وهي حمالة أثقالهم[2].

وإن كانت الإبل راحلتهم، ففي السماء ما يهتدون به أثناء ترحالهم، فهم يعرفون من النجوم والشمس أوقات الليل والنهار ووجهة السير.

وكما أن في السماء نجومًا ترشدهم أثناء ظعنهم، فكذلك هناك الجبال أيضًا من أبرز علامات الاسترشاد على الطريق، كما أن فيها سكنًا لهم، ثم يأتي بعد ذلك ذكر الأرض – المرعى والمفترش - ترتيبًا لتأمل النظر من الأعلى إلى الأسفل (السماء - الجبال - الأرض).

ومما ورد فيه التقديم قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥).

١ - المتأمل في الآية يجد ذكر الرواسي يتلوها ذكر الأنهار ثم السبل ولعل السبب في ذلك أن «الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٥).

ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة - ابتداءً بالأرض - شبيهًا بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه»[1].

٢ - تقدم ذكر الجار والمجرور (في الأرض) على المفعول به (رواسي) للأهمية، لأن محور الامتنان في الآية الأرض المهيأة للحياة، لا ما جعل في الأرض من الأشياء؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ امتنان بالأرض المثبتة بالجبال، أما لو جاء النص بتأخر الجار والمجرور: [وَأَلْقَىٰ رَوَاسِيَ فِي الأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ] لكان الامتنان بالجبال التي تثبت الأرض، وسياق الآية إنما هو الامتنان بالأرض المثبتة بالجبال والمهيأة للحياة بالأنهار والسبل، فناسب ذلك تقديم الجار والمجرور[2].

ومن التقديم والتأخير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء:٣١).

حيث قدم (فجاجًا) على (سبلاً) في قوله (فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا). أما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح:١٩-٢٠).

قدم (سبلاً) على (فجاجًا) وقد ورد في لسان العرب أن الفجّ: الطريق

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٠).

(٢) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المباني، سامي وديع القدومي، دار الوضاح، عمان، الأردن، (ص٣١).

الواسع بين جبلين؛ وقيل في جبل[1]. أما ما جاء في معنىٰ (سبلاً) فالسبيل هو الطريق وما وضح فيه[2].

ولعل السبب في تقديم الفجاج علىٰ السبل في الآية الأولىٰ، وتأخيرها في آية نوح، هو كون الفج في الأصل الطريق في الجبل أو بين جبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك، بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها[3].

ومن التقديم كذلك ما جاء في سورة النحل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل:٦٨).

حيث تقدم ذكر الجبال ثم الشجر ثم مما يعرشون ولعل السبب في ذلك – والله تعالىٰ أعلم – أن أكثر النحل يسكن الجبال يليه ما يسكن الشجر ثم ما يكون تحت رعاية الإنسان وهو المشار إليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وقد يكون السبب في التقديم هو ما يعرف من أن العسل الناتج من نحل الجبل وهو المسمىٰ بـ(العسل الجبلي) أو (العسل الحر) أفضل من غيره من الأنواع حيث ينتجه النحل بجمع الرحيق بدون تدخل الإنسان. ولما يحويه عسل نحل

(١) انظر: لسان العرب (ف.ج.ج).

(٢) انظر: المرجع السابق (س.ب.ل).

(٣) انظر: التفسير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، ط٤، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، (ص٦٢).

الجبال من المعادن الجبلية المهمة مثل عنصر الحديد، ثم عسل نحل الشجر ثم عسل نحل البيوت بالترتيب الوارد في الآية الكريمة.

الجبال بين (الإفراد والجمع) و(التعريف والتنكير):

وردت كلمة (الجبال) علىٰ صيغة جمع التكسير (٣٣)[١] مرة في القرآن الكريم كلها معرفة، ما عدا ما ذكر في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ:١٠) وقد وردت في هذه الآية نكرة مقصودة، فالمنادىٰ في قوله «يا جبال» معين محدد وليس شائعًا. فإن كانت قبل النداء نكرة، فهي بعد النداء معرفة بسبب القصد في ندائها، لأن النكرة المقصودة بالنداء معرفة.

والموضع الآخر الذي ذكرت فيه نكرة، فهو في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ (النور:٤٣) فهي مختصة بالسحاب[٢].

أما كلمة (جبل) علىٰ صيغة الإفراد فقد وردت (٦) مرات[٣]، كلها معرفة

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (ص١٦٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٢٠٤).

(٣) المعجم المفهرس، (ص١٦٣).

ما عدا ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ (هود:٤٣) علىٰ لسان ابن نوح لما دعاه نوح إلىٰ أن يركب معه السفينة خوفًا عليه من الغرق، والجبل هنا غير معين ولا محدد؛ ولذا جاء بصيغة النكرة.

وما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١) والمقصود من كلمة (جبل) هنا غير محدد؛ ولذا جاء علىٰ النكرة فالمعنىٰ – والله تعالىٰ أعلم – «لو أنزل علىٰ جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعًا متصدعًا»[1].

وقد علل الفخر الرازي في تفسيره «التفسير الكبير» إفراد كلمة «الطور» في القرآن الكريم وهو جبل معروف كلم الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام عليه في سياق القسم، وفي سور أخرىٰ جاء القسم بالمجموع كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ (الذاريات:١)، وقوله: ﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ ﴾ (المرسلات:١)، وقوله: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ (النَّازعات:١).

(١) فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (٥/ ٢٠٧).

أما في سورة الطور، قال: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ (الطور:١) ولم يقل والأطوار، لاسيما إذا قلنا إن المراد من الطور الجبل العظيم كالطود، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ (النساء:١٥٤) أي الجبل، فما الحكمة من ذلك؟!

حين نتأمل هذه المواضع نجد أنه في الجموع في أكثرها أقسم بالمتحركات، والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتىٰ يقع القسم بها، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها، والمقصود فيها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير، والواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا، فأقسم في ذلك بالواحد، وكذلك قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ (النَّجم:١)، والريح ما علم القسم به، وفي الطور علم[1].

وكذلك ذكر «جبل» علىٰ صيغة الإفراد ورد باعتباره شاهداً علىٰ عظمة الخلق، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١). وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣).

(١) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٤١).

وذكر بصيغة الجمع (الجبال) شهادة علىٰ إشراقات يشهد بها علماء علوم الأرض الذين يخشون الله في سياقات كيف خلقت الجبال؟ وكيف نصبت؟ وكيف رست؟ وكيف ألقيت؟ وكيف جعلت للأرض ميزانًا يحفظ الكوكب من الاضطراب، وعلىٰ تعددها واختلاف أشكالها وألوانها مصيرها للفناء حيث تسير سيراً، وتدك دكًا، وتصير هباءً منبثًا، فتزول الأوتاد العظام وتصبح قاعًا صفصفًا؟!»[1].

أما كلمة (رواسي) فقد وردت علىٰ صيغة النكرة والجمع، فالرواسي يختلف عددها من زمن إلىٰ زمن[2] ومنها - والله تعالىٰ أعلم - إشارات إلىٰ أمور خفية لا يعلمها إلا الله ﷻ.

الفصل والوصل:

الفصل والوصل من أهم الموضوعات التي شغلت كتب البلاغة، بل قال بعض البلاغيين «البلاغة معرفة الفصل من الوصل». يقول عبدالقاهر الجرجاني في بيان أهميته: «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها علىٰ بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف

(١) إشراقات علمية حول آيات الجبال والرواسي في القرآن، د. حسني حمدان الدسوقي، موقع شبكة الألوكة: http://www.alukah.net/culture/0/63837

(٢) الجبال في القرآن الكريم، د. حسني حمدان الدسوقي، موقع شبكة الألوكة: http://www.alukah.net/sharia/0/72873

واحدة منها بعد أخرىٰ من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتىٰ لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا علىٰ البلاغة، وأوتوا فنـًا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدًّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئِل عنها فقال: «معرفة الفصل من الوصل»، ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يَكْمُل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[1].

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ (النَّبأ: ٦-١٤).

هذه الآيات جاءت متفقة إنشاءً بجامع معنوي للاستدلال علىٰ قدرته تعالىٰ، إذ قد أنكر المشركون قدرته علىٰ البعث والحساب؛ فلذلك جاءت هذه الآيات لترد إنكارهم، فلما «أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة علىٰ كمال القدرة فما وجه إنكار قدرته علىٰ البعث»[2].

(١) دلائل الإعجاز، (ص٢٢٢).

(٢) الكشاف (٤/ ٢٠٧). وانظر: مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد٨، العدد ٤ «الفصل والوصل في القرآن الكريم»، (سورتي النبأ، وعبس أنموذجًا)، د. عبدالقادر عبدالله فتحي.

وهكذا جمعت هذه الآيات علىٰ سبيل الوصل بجامع معنوي للاستدلال علىٰ الوحدانية بالانفراد بالخلق وعلىٰ القدرة علىٰ إعادة الأجساد للبعث بعد فنائها.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فاطر:٢٧).

يقول ابن كثير في تفسيره للآية: «يقول تعالىٰ منبهًا علىٰ كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلىٰ غير ذلك من ألوان الثمار كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها... وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ (فاطر:٢٧) أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق – وهي: الجدد، جمع جدة – مختلفة الألوان أيضاً»[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ عطف علىٰ جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾، وعطفها عليها للمناسبة الظاهرة[2]. فكل من الجملتين ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾، و﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ ﴾ فيهما دلالة إلىٰ ما يثبت القدرة الإلهية في خلق الأشياء

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٢).

مختلف الأشكال والألوان، وهذه هي المناسبة التي دعت إلىٰ الوصل بين الجملتين وهذا ما يسمىٰ بـ«التوسط بين الكمالين»[1].

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٧٤).

فجملة (وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا) معطوفة علىٰ جملة (تتخذون من سهولها قصوراً).

وجملة (تتخذون) في محل نصب حال من ضمير المفعول في (بوّأكم)، وجملة (تنحتون) في محل نصب معطوفة علىٰ جملة تتخذون، فأريد - والله تعالىٰ أعلم- إشراك الجملة الثانية في الحكم الإعرابي للجملة الأولىٰ فعطفت عليها، ومما حسن الوصل بين الجملتين تناسب الجملتين في نوع الفعل؛ حيث بدأت كل منهما بالفعل المضارع.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ

(١) المقصود بـ«التوسط بين الكمالين» كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع عدم وجود مانع من الوصل، ويكون ذلك عندما تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء لفظا ومعنىٰ، أو معنىٰ فقط مع جامع بينهما. انظر: المفصل في علوم البلاغة العربية، د. عيسىٰ علي العاكوب، دار القلم، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (ص٣٠٦).

﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل:٨١).

الأكنان: جمع كن، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك، وهي هنا الغيران في الجبال، حيث كانوا يأوون إليها في شدة الهجير أو عند اشتداد المطر[1].

وجملة: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ في محل رفع خبر المبتدأ (الله)، وجملة ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾. والسياق كما نرىٰ في الآيتين، وكذلك فيما سبق عليهما من آيات كلها في تعداد نعم الله ﷻ علىٰ خلقه، وهذا هو مسوغ الوصل بين الجمل حيث بجمعها كلها معنىٰ واحد، وكذلك لا يخفىٰ أن للجملة الأولىٰ محلًا من الإعراب وأريد إشراك الجملة الثانية معهما فيه فعطفت عليها. ومحسن الوصل، التناسب في نوع الجملة، وكذلك الفعل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:٣). قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ عطف علىٰ جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الآية السابقة، فبين الجملتين شبه تضاد، اشتملت الأولىٰ علىٰ ذكر العوالم العلوية وأحوالها، واشتملت الثانية علىٰ ذكر العوالم السفلية.

(١) انظر: ابن كثير (ص٥٨١)، وفتح القدير (٣/ ١٨٤)، والتحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٠).

والمعنىٰ أنه تعالىٰ خالق العوالم وأعراضها[1]. وجملة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ والثابت بين الآيات هو أنها كلها في سياق بيان قدرة الله تعالىٰ علىٰ الخلق والتدبير.

وقد فصلت جملة «جعل» لأن فيها بيانًا لإعجاز خلق الثمرات؛ فقد ورد في القرآن الكريم ذكر للزوجية، سواء فيما يخص الإنسان أو الحيوان أو النبات، وفي هذا ما يدل علىٰ قدرة الخالق ﷻ علىٰ الخلق والتدبير والتنظيم.

* قوله تعالىٰ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر:١٩).

فجملة ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ معطوفة علىٰ ما قبلها ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ ففي كل بيان لقدرته تعالىٰ علىٰ الخلق والتنظيم.

* قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١).

يقول الطبري في تفسيره: «لو أنزلنا هذا القرآن علىٰ جبل - وهو حجر - لرأيته يا محمد خاشعًا يقول: متذللاً متصدعًا من خشية الله علىٰ قساوته، حذراً من أن لا يؤدي حق الله المفترض عليه من تنظيم القرآن»[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٨٢).

(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ٦٨).

وقد فصلت جملة ﴿ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا ﴾ عن سابقتها لوقوعها بمنزلة الجواب عن سؤال نشأ عن الجملة الأولىٰ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ تقديره ماذا سيحدث؟! تأتي الجملة الثانية بمنزلة الجواب، وكما لا يمكن الوصل بين الجواب والسؤال، فكذلك ما ينزل منزلتهما.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل:٦٨). حيث فصلت جملة ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ عن سابقتها ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ ﴾؛ وذلك لوقوعها بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر نشأ عن الجملة الأولىٰ وهو وما الذي أوحىٰ به؟ فتأتي الثانية متضمنة للجواب (أَنِ اتَّخِذِي)، وهذا ما يسمىٰ بـ«شبه كمال الاتصال».

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (سبأ:١٠).

يخبر تعالىٰ عما أنعم به علىٰ عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه،مما أتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات[1].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

حيث وقعت جملة ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى ﴾ (سبأ:١٠) مبينة بجواب عن سؤال نشأ من قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ (سبأ:١٠) تقديره، وما هذا الفضل؟! يأتي الجواب بعد ذلك.

الاستفهام:

للاستفهام كلمات موضوعة وهي: الهمزة، وأم، وهل، وما، ومن، وأي، وكيف، وكم، وأين، وأنىٰ، ومتىٰ، وأيان[1]، وهي أدوات تستعمل في طلب الفهم بالشيء، والعلم به، وهذا هو المعنىٰ الحقيقي لها، لكن هناك معان مجازية بلاغية تتجاور إليها هذه الأدوات مغادرة معناها الأصلي، وهذه المعاني المجازية تختلف باختلاف السياق وتغير المقام.

والاستفهام المستخدم لمعان مجازية ظاهرة موجودة في القرآن الكريم وكذلك في الأحاديث النبوية الشريفة، منها علىٰ سبيل المثال - فيما يخص موضوعنا هذا - ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر:٢٧-٢٨).

(١) انظر: في معانيها مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ت: د. عبدالحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (ص٤١٨).

بدأت الآية الكريمة بالاستفهام، وظاهره أن الاستفهام هنا ليس علىٰ حقيقته وإنما تجاوز معنىٰ طلب الفهم إلىٰ معنىٰ مجازي وهو «التقرير» فموضوع أن الماء ذا اللون الواحد يولد بسبب نزوله ثمرات تختلف ألوانها بين الأحمر والأخضر والأصفر وغير ذلك من الثمرات المختلفة الألوان وكذلك الأشكال، وكذلك تشكيل الجبال بألوان مختلفة منها الأبيض والأسود والأحمر،وكذلك تلون الطرق الجبلية بألوان متفاوتة، هذا موضوع ظاهر مرئي بالعين المجردة، ولا يمكن لأحد إنكاره، وكذلك أيضاً تلون البشر ما بين الأسود والأبيض والأحمر بتفاوت الدرجات وكلهم مخلوقون من ماء دافق.

وكذلك تلون سائر الدواب، وفي هذا كله ما يدعو إلىٰ الإقرار بوجود الخالق ﷻ والإقرار ببديع صنعه وعجيب خلقه، وفي التحرير والتنوير: «والرؤية بصرية، والاستفهام تقريري، وجاء التقرير علىٰ النفي»[1]

والاستفهام تقريري ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جداً[2] ولا يخفي أن الاستفهام التقريري: هو ما يجعل المخاطب يقر ويعترف بأمر قد استقر عنده.

وقد ذكر السيوطي لطيفة في حقيقة الاستفهام التقريري في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» حيث قال: «وحقيقة استفهام التقرير: أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل علىٰ النفي، ونفي النفي إثبات. ومن أمثلته قوله

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٧/ ٢٩٦)، روح المعاني (٢٢/ ٣٦٠).

تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ (الزُّمر:٣٦)، ونحو قوله تعالىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف:١٧٢)»[1].

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (الحج:١٨).

والاستفهام في الآية قد يكون إنكاريًا، حيث ينكر علىٰ المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات علىٰ تفرد الله بالإلهية، كما قد يكون تقريريًا، في حال كان الخطاب موجهًا إلىٰ الرسول ﷺ، لأن حصول علم النبي ﷺ متقرر من سورة الرعد وسورة النحل[2].

قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:٦١).

والمعنىٰ جعل الأرض ثابتة قارّة غير مضطربة. وهذا تدبير عجيب ولا يدرك تمام هذا الصنع العجيب إلا عند العلم بأن هذه الأرض سابحة في الهواء متحركة في كل لحظة، وهي مع ذلك قارّة فيما يبدو لسكانها فهذا تدبير أعجب،

(١) الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة البصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، (ص٦٦٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٦).

وفيه مع ذلك رحمة ونعمة، ولولا قرارها لكان الناس عليها متزلزلين مضطربين ولكانت أشغالهم معنتة لهم. ومع جعلها قراراً شق فيها الأنهار فجعلها خلالها. وكذلك في تكوين الجبال حكمة لدفع الملامسة عن الأرض ليكون سيرها في الكرة الهوائية معدلاً غير شديد السرعة، وبذلك دوام سيرها، وجعل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة، والحاجز هنا ليس جسماً آخر فاصلاً بينهما، بل من طبعهما، ومنعاً للاختلاط، فسبحان الله العظيم خلق فأبدع.

والاستفهام تقريري، كما دل عليه قوله في نهايته في ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فهو تقرير لإثبات هذه القدرة لله وحده، وهو تقرير مشوب بتوبيخ.

أما الاستفهام في قوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فهو استفهام إنكاري، تمهيداً للتوبيخ بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] (النحل:٧٥).

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النَّبأ:٦-٧).

والاستفهام هنا للتقرير، أي: لقد جعلنا - بقدرتنا التي لا يعجزها شيء - الأرض كالفراش الممهد الموطأ، لتتمكنوا من الاستقرار عليها، وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ معطوف علىٰ التقرير الذي في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠-١٤).

(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٢٠٧)، التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤).

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:١٧-٢٠).

الهمزة للاستفهام الإنكاري: إنكارًا عليهم إهمال النظر في الحال إلىٰ دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته. ولزيادة التنبيه علىٰ إنكار هذا الإهمال قيد فعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ بالكيفيات المعدودة في قوله: كيف خلقت، كيف رفعت، كيف نصبت، كيف سطحت أي: لم ينظروا إلىٰ دقائق هيئات خلقها[1].

***

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٤).

المبحث الثالث
التصوير الفني

التصوير الفني هو إحدىٰ الخواص الراقية في كل تعبير جميل. بهذه الخاصية يرتقي الأدب عن غيره من ضروب التعبير المشتركة معه في نفس مادته كالفلسفة والتاريخ والكتابة العلمية علىٰ مختلف أنواعها.

يقول ابن الأثير: «اعلم أن المجاز أولىٰ بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة... لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي (اللغة الفنية) إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتىٰ يكاد ينظر إليه عيانًا»[1].

أ) الصورة البيانية:

ليست وظيفة الخيال وقفًا علىٰ استثارة الصورة من مكامنها في الذهن واستعادتها كما هي عليه في الواقع فحسب، بل إن له كذلك القدرة علىٰ التأليف بين تلك الصور وإعادة تشكيلها الخارجي في نسب وعلاقات جديدة لا وجود لها في العالم الخارجي؛ لذلك فهو ليس مجرد مرآة تنعكس علىٰ

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، (١/ ٧٨).

صفحتها صورة الأشياء، ولكنه طاقة إيجابية نشطة، لها فعاليتها في صياغة الصورة، وتمثلها في هيئات قد يتعذر وجودها في الواقع[1].

ولا يخفىٰ أن التصوير الفني هو إحدىٰ الخواص الموظفة في السياق القرآني، متىٰ ما أريد استثارة الذهن لاستحضار الصورة واضحة جلية بتفاصيلها ودقائقها.

ومن هذا ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴾ (النَّبأ:٧).لم يعرف الإنسان من الجبال قديماً إلا شكلها الظاهر فقط، وهو ما كان يراه مرتفعاً عما حوله من الأرض ارتفاعاً ملحوظاً يجعله يعظم ويطول، وتعامل معها، واستفاد منها، وعاش في كنفها، ولم يكن العقل البشري يتصور أن يكون هذا الشكل الخارجي الهائل للجبال ما هو إلا نسبة يسيرة من حجم الجبل الحقيقي.

وعلىٰ أن هناك كثيراً من المعلومات كانت غائبة عن ذهن الإنسان، إلا أن المفسرين أشاروا إشارات علمية، استنادًا للمعنىٰ اللغوي للكلمات المستخدمة في سياق الآيات الكريمة، ومن ذلك علىٰ سبيل المثال:

١ – قال الزمخشري: «﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴾ أي أرسيناها بالجبال كما يرسىٰ البيت بالأوتاد»[2].

(١) انظر: الصورة البيانية في الموروث البلاغي، د. حسن طبل، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (ص٢٦).

(٢) الكشاف (٤/ ٢٠٧).

٢ - وقال القرطبي: «﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا ﴾ أي لتسكن ولا تتكفأ بأهلها»[١].

٣ - وقال أبو حيان: «﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا ﴾ أي ثبتنا الأرض بالجبال كما يثبت البيت بالأوتاد»[٢].

٤ - وقال الشوكاني: «﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا ﴾ الأوتاد جمع وتد أي جعلنا الجبال أوتادًا للأرض لتسكن ولا تتحرك»[٣].

وفي السنوات الماضية، وعندما بدأ الإنسان بدراسة القشرة الأرضية اكتشف العلماء أن كل جبل هو عبارة عن وتد يثبت بالأرض في رحلة دورانها. فتبين أن للجبل كثافة تختلف عن الأرض، وأننا نرىٰ من الجبال الجزء البارز منها، ولكن معظم أجزاء الجبال تنغرس في باطن الأرض لآلاف الأمتار وهذا ما أدهش العقول؟!.

يقول دكتور زغلول النجار: «إن جميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل الخارجي لهذه التضاريس، دون أدنىٰ إشارة لامتداداتها تحت السطح، التي ثبت أخيراً أنها تزيد عن الارتفاع الظاهر بعدة مرات... ولم تكتشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما تقدم السير جورج ايري بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥١).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٠٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٦٤).

للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزءًا طافيًا على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، وبالتالي فلابد أن يكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكثافة لضمان ثباتها واستقرارها»[1] وقد أصبحت نظرية ايري حقيقة ملموسة مع تقدم العلم بتركيب الأرض الداخلي، حيث أصبح معلومًا على وجه الحقيقة: أن للجبال جذوراً ممتدة في أعماق الأرض؟!

فسبحان الذي وصف الجبال من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة (بالأوتاد) وهي لفظة واحدة تصف كلاً من الشكل الخارجي للجبل، وامتداده الداخلي ووظيفته، وهذه صورة من صور الإعجاز العلمي التي أشار إليها القرآن الكريم.

ويبدو أن الصورة البيانية هنا من قبيل التشبيه[2]. قال الألوسي: «﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي كالأوتاد ففيه تشبيه بليغ.. والمراد أرسينا الأرض بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد»[3].

(١) الفكرة الجيولوجية عن الجبال في القرآن، الدكتور زغلول النجار، إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، (ص٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، ضبطه عبدالباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م،=

ويجيء التشبيه البليغ في آيات القرآن الكونية ليقود العلماء إلىٰ التلمس العلمي لهذه الآيات وإدراك ما بها من إشارات علمية، وذلك من خلال مطابقة المجهول بالمعلوم، فالأوتاد معلومة صفة وأداء وعلىٰ العلماء أن يدرسوا الجبال علىٰ ضوء ذلك التشبيه، وقد تحقق ذلك وتوصل العلماء إلىٰ معلومات كثيرة في هذا الموضوع[1].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النَّبأ:٧).

وصف السياق القرآني الجبال في هذه السورة لكونها «أوتادا» وهذا الوصف جاء متآزرًا مع قرائن هذا السياق؛ فهذا الوصف يحدد وظيفة الجبال في المحافظة علىٰ رسوّ الأرض واتزانها، وهذا المعنىٰ بعينه هو ما يقيده وصف الجبال بكونها (رواسي) في أكثر من سياق. أما إيثار وصفها أو - بالأحرىٰ- تشبيهها بالأوتاد ففيه ما يتواءم مع خصوصية السياق فيها؛ إذ الوتد - كما هو معلوم- قطعة من الخشب أو الحديد تدق في الأرض لتثبيت حبال الخيمة[2] ولا يقوم بوظيفته هذه إلا إذا غاص جزء كبير منه في الأرض، وهو من هذه الزاوية يوائم طبيعة الجبال من جهة، ووظيفة الماء من جهة أخرىٰ، أما طبيعة

=(٢٩/ ٢٠٥).

(١) انظر: منهج دراسة الآيات الكونية في القرآن الكريم، إعداد د. كارم السيد غنيم، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

https://goo.gl/rwWShv

(٢) انظر: لسان العرب مادة (و.ت.د).

الجبال فلما أثبته العلم الحديث من أن جذورها أو أجزاءها السفلية المنغمسة في باطن الأرض هي أكثر امتدادًا من أجزائها العلوية الظاهرة، وأما وظيفة الماء: فلأن نفع الإنسان به في هذا السياق لا يتيسر له من ظاهر الأرض، بل من باطنها؛ فالإنسان في سياق هذه السور ينعم بالخيرات النابتة له - بتأثير الماء الثجاج - من باطن الأرض[1].

وكذلك ذكر الجبل في القرآن الكريم مشبهًا به لكن علىٰ اختلاف في المسمىٰ، انظر لقوله تعالىٰ:

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (هود:٤٢).

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (الرَّحمن:٢٤).

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء:٦٣).

لا يخفىٰ أن اختلاف الاسم في هذه الآيات يعود إلىٰ الاختلاف في السياق.

فالآية الأولىٰ، تحكي قصة نوح عليه السلام مع ابنه، عندما طلب منه أن يركب معه في السفينة لئلا يكون من الكافرين، فالمراد هنا والله أعلم وصف الموج

(١) انظر: حول الإعجاز البلاغي للقرآن، د. حسن طبل، مكتبة الإيمان، ط١، (ص٢٨٣).

بالطول والعظم والضخامة مع استحضار شعور الخوف؛ ولذا آثر السياق كلمة (الجبال) التي يستحضر منها الذهن معنىٰ الضخامة وكذلك ما يشعر به حين رؤيتها من الخوف والرهبة.

ويؤكد هذا أنه حين أراد السياق القرآني مزيداً من التخويف عما هو في سورة هود، قال في سورة لقمان: ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ** ﴾ (لقمان:٣٢) شبه الموج بالظلل، يقول الطبري: «شبه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع ظلة، شبه بها الموج في شدة سواد كثرة الماء»[(١)] بمعنىٰ الجبال أو السحاب[(٢)].

بينما سميت الجبال بالأعلام في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ** ﴾ (الرحمن: ٢٤)؛ لأن للسفن أحوالًا أخرىٰ منها الجمال والجلال، الذي يراه الإنسان في العلم أيضـًا، ففي لسان العرب، أعلام القوم: ساداتهم، وعلمه يعلمه، ويعلمه علمـًا وسمه[(٣)] وسمي (بالطود) في سورة الشعراء في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ (الشعراء: ٦٣). والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ١٠٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٧٢).

(٣) انظر: لسان العرب مادة (ع.ل.م).

واجتماع الماء - كما قال الرازي - فوق بعضه حتىٰ صار كالجبل من المعجزات، وتشكله علىٰ هيئة جدران مائية إعجاز آخر[1].

وكما هو معلوم أن المعجزات غير معتادة عند البشر وغير معروفة في حياتهم؛ ولذا آثر السياق القرآني هنا كلمة (الطود) وهي من الكلمات غير المتداولة كثيراً عند العرب مقارنة بكلمة (الجبل).

ب) المفارقة التصويرية:

المفارقة التصويرية ظاهرة أدبية متميزة تعمل علىٰ إبراز الاختلاف بين صورتين، لتحريك الخيال من أجل التعايش مع كل صورة بمفردها بكل ما فيها من تفاصيل، فهي: «فكرة تقوم علىٰ استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان ينبغي أن تتفق وتتماثل»[2].

والمفارقة تمنح القارئ حساً رهيفاً، يثير الانتباه وينشط الفكر، لتأمل العلاقات الخفية بين صورتين بكل ما فيها من خطوط رفيعة لاستجلاء المعنىٰ كاملاً متحركاً.

والمفارقة التصويرية ظاهرة موجودة في النص القرآني لتأدية وظيفة دلالية، ممتلئة بحيوية التعبير.

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٨).

(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علىٰ عشري زايد، دار الفصحىٰ للطباعة والنشر، ١٩٧٧م، (ص١٣٧).

ومن الآيات التي تشعرنا بالتناقض بين صورتين ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل:٨٨).

ذهب معظم المفسرين إلىٰ أن هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال يوم القيامة، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «وترىٰ الجبال تحسبها جامدة» أي تراها كأنها ثابتة باقية علىٰ ما كانت عليه (وهي تمر مر السحاب) أي تزول عن أماكنها كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (الطُّور:٩-١٠)[1].

ولكن في العصر الحديث هناك من ذهب إلىٰ أن ذلك الوصف للجبال لا يختص بيوم القيامة، بل بحركتها علىٰ الأرض أيضـًا، يقول الشعراوي في تناوله للآية: «﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي تظنها ثابتة، ويوم القيامة لا يوجد ظن بل إن الظن في الدنيا، أما يوم القيامة فكل ما نراه هو الحق، ولذلك هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال في الدنيا... إذا صعدنا إلىٰ الفضاء الخارجي فإننا نرىٰ الأرض وهي تدور وتتحرك معها الجبال أيضـًا، وفي هذا إشارة إلىٰ دوران الأرض حول نفسها»[2].

هل كان من الممكن أن يتصور العقل البشري قديمـًا أن الجبال برسوها

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٩).

(٢) القناة الرسمية لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي علىٰ اليوتيوب:
https://www.youtube.com/watch?v=qeoa1XIv7aQ

وصلابتها وعظمتها أن تكون متحركة، وحتىٰ الإنسان في يومنا هذا هل يتصور حين يقف أمام هيبة الجبال أنها تتحرك، فالذهن هنا أمام صورتين متناقضتين، الجبال الصامدة المثبتة كالأوتاد، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النَّبأ:٧)، وقوله: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (النَّازعات: ٣٢)، وقوله: ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ (الغاشية:١٩)، والجبال المتحركة في قوله ﷻ: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل:٨٨)، وحتىٰ المتأمل في هذه الآية يجد الصورتين متقابلتين مع ما تحويه كل منهما من تناقض ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ ﴾ (النمل:٨٨).

تقابل بين صورة الجبال الصامدة الصلبة تلك الصورة التي يرسمها الإنسان في مخيلته، يراها بأم عينيه، وبين صورة أخرىٰ تشير إليها هذه الآية الكريمة وهي صورة الجبال متحركة يجهل حركتها، فكيف لهذه الجبال أن تتحرك؟!

إن في الصورة الأخرىٰ ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ ﴾ أمر يصعب علىٰ العلماء قديمًا تصوره، فكيف بتلك الكتل الضخمة من اليابسة أن تتحرك؟! كان من الصعب أن يتخيل الناس أن الألواح الأرضية تتحرك وتتمدد، يقول زغلول النجار في توضيح الآية: هذه إشارة لطيفة إلىٰ دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وذلك لأن كل الإشارات القرآنية التي تشير إلىٰ حركة الأرض

عبارة عن إشارات تأتي في صياغة لطيفة لا تذهل ولا ترهب الناس في وقت نزول القرآن الكريم، يفهم منها أهل العصور المتتالية منذ زمن التنزيل كل بقدر استطاعته، وتبقىٰ الحقيقة القرآنية صحيحة، فكل إشارة إلىٰ كروية الأرض، وإلىٰ دوران الأرض، وإلىٰ حركات الأرض المختلفة، إشارة لطيفة لا يفزع أهل البادية منها[1].

يرىٰ علماء الجيولوجيا اليوم أن هناك حركة خاصة بالجبال تختلف عن حركة الأرض بشكل كامل.

فالأرض عندما تدور حول محورها فإن كل شيء معها يدور، الإنسان والبحار والأشجار والحيوان، ولذلك فإن هذه الآية لابد أن يكون فيها معجزة تتعلق تحديداً بحركة الجبال[2].

ويقول العلماء حديثًا، إن للجبال حركات مختلفة منها:

١ - حركة أفقية مع ألواح الأرض، فاللوح الهندي مثلاً يتحرك مع ما يحمله من جبال كل سنة عدة ملليمترات، فالجبال تتحرك وتمر وتدفع نتيجة التيارات الحرارية للطبقة التي تلي جذور الجبال.

---

(١) انظر: المدلول العلمي للجبال في القرآن، أ.د. زغلول راغب النجار، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

https://goo.gl/a9U5fs

(٢) انظر: موقع عبدالدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الرابط:

http://kaheel7.com/pdetails.php?id=563&ft=3

٢ - حركة عمودية نتيجة للتيارات الحرارية أيضاً والتي تساهم في رفع الجبل وخفضه عدة ملليمترات كل سنة.

٣ - إن الأمطار الهاطلة بالقرب من الجبال تختزن في خزانات ضخمة تحت الجبال وتؤثر علىٰ جذور الجبال، فالأمطار تسبب للجبال تآكلاً مقداره ١٠ ملليمتر كل سنة[1].

إن حركة الجبال هذه لا يمكن إدراكها مباشرة ولكن تأثيراتها تظهر خلال ملايين السنين؛ لذلك تقابل صورة حركة الجبال هذه، الصورة الأولىٰ التي تمثل ما اعتاده الإنسان من منظر صلب جامد، إنها تقابلها ولا تناقض ما فيها.

كذلك إن هذه الرؤية الجيولوجية الحديثة لا تتناقض مع ما ذهب إليه المفسرون قديماً لأن الجبال بالفعل سوف تتحرك وتنسف.

فسبحان من أودع في هذه الجبال الضخمة حركات لا نشعر بها، ولا نراها. فكيف لمن يعلم ما تحويه هذه المرتفعات الهائلة من حركات داخلية خفية، أن لا يعلم ما بداخل الإنسان وما تكنّه نفسه ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾؟!!

ولنتأمل أيضاً مجموعة من المفارقات التصويرية بين صور الجبال في الدنيا وبين صورها يوم القيامة، انظر إلىٰ صورها ضخمة شاهقة صامدة في مثل قوله تعالىٰ:

(١) للاستزادة في هذا الموضوع انظر: الموقع السابق.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية:١٩).

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النَّبأ:٧).

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ (النَّازعات:٣٢).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَمِخَٰتٍ﴾ (المرسلات:٢٧).

فإن حصل اضطراب داخل الأرض فإن هذه الكتل الجبلية مثبتة بعضها البعض كالأوتاد، ولو لم تكن هذه الكتل لحصل الميد.

وانظر إلىٰ الصور المقابلة حيث تدك هذه الجبال وتنسف وتصبح كالسراب والعهن المنفوش في مثل قوله تعالىٰ:

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ (الواقعة:٥).

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ (المعارج:٩).

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (المرسلات:١٠).

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النَّبأ:٢٠).

* * *

الخاتمة

وبعد هذا التطواف بين تلك الآيات الكريمات التي كشفت لنا حقائق علمية معجزة حول ظاهرة «الجبال» نود الإشارة إلىٰ أهم ما انتهت إليه هذه الدراسة المتواضعة:

١ - من خلال تدبر الآيات القرآنية الكريمة التي وردت فيها ظاهرة الجبال نجد الارتباط وثيقا بين الإعجاز البلاغي والإعجاز العلمي، في هذا الموضوع الذي يمس ظاهرة هي من أبرز ظواهر الأرض، ولعل في ذلك ما يدعو إلىٰ الربط بين الإعجازين في غير هذه الظاهرة.

٢ - اشتملت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر «الجبال» علىٰ العديد من الأساليب المتنوعة المبهرة، وذلك فيما يسمىٰ «بالاختيار النحوي» كالذكر والحذف والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير متىٰ ما دعت الأغراض البلاغية لذلك حسب ما يقتضيه السياق.

٣ - لا يخفىٰ أن ظاهرة الترادف من أبرز الظواهر اللغوية للغة العربية، حيث نجد الكلمتين أو أكثر لهما المعنىٰ ذاته لكن لكل كلمة ظلها الخاص بها، وهذا ما لمسناه في استخدام القرآن الكريم للجبال في مواطن والرواسي في مواطن أخرىٰ، فلكل منهما استخدام خاص بحسب ما يطلبه السياق.

٤ – إذا كانت الكلمة القرآنية معجزة بذاتها ، فإن النظم القرآني معجز بأكمله نرىٰ ذلك واضحًا حين نتأمل آيات الجبال، حيث تأخذ هذه الآيات مكانها بين مجموع ظواهر وآيات كونية مكونة لسياج معبر علىٰ نحو دقيق يعجز الإنسان عن نظيره

٥ – من خلال تحليل الآيات الكريمة التي وردت فيها ظاهرة الجبال نلمس فهم بعض المفسرين لبعض الإشارات العلمية في القرآن الكريم، هذا علىٰ ضآلة الإمكانات المادية في ذاك الوقت.

٦ – وظف القرآن الكريم الصورة الفنية والمفارقة التصويرية في ظاهرة الجبال توظيفًا مبهراً، وما ذاك إلا لإبراز المعاني محسوسة، فها هي الجبال ـ علىٰ سبيل المثال ـ أوتاداً، كما ظهرت المفارقة التصويرية جلية فكيف للجبال الثابتة الشاهقة أن تمر مر السحاب حينا وكيف بها أن تدك وتنسف وتصبح كالعهن المنفوش أحيانا أخرىٰ.

❊❊❊

قائمة المراجع والمصادر

(١) القرآن الكريم.

(٢) الإتقان في علوم القرآن. السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولىٰ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

(٣) البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٤) بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

(٥) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، السامرائي، د. فاضل صالح، الطبعة الثانية، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٦) التحرير والتنوير. بن عاشور، محمد الطاهر.

(٧) تفسير ابن كثير. بن كثير القرشي، الإمام أبي الفداء إسماعيل الدمشقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٨) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني. القدومي، سامي وديع، دار الوضاح، عمان، الأردن.

(٩) تفسير الجلالين. المحلي والسيوطي، جلال الدين محمد أحمد، جلال الدين، قدم له وعلق عليه: العلامة محمد كريم راجح، دار القلم، بيروت، لبنان.

(١٠) التفسير القرآني. السامرائي، د. فاضل صالح، الطبعة الرابعة، دار عمار، عمان، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(١١) التفسير الكبير. الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، لبنان.

(١٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. السعدي، العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر، حققه وضبطه ونسقه وصححه محمد زهري النجار، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ.

(١٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن. الطبري، الإمام ابن جرير الطبري، ت. صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(١٤) الجامع لأحكام القرآن. تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١٥) حول الإعجاز البلاغي للقرآن. طبل، د. حسن، الطبعة الأولىٰ، مكتبة الإيمان.

(١٦) دلائل الإعجاز. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، تعليق أبي فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(١٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الألوسي، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، ضبط وتصحيح: علي عبدالباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(١٨) الصورة البيانية في الموروث البلاغي. طبل، حسن، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٩) عن بناء القصيدة العربية الحديثة. زايد، علي عشري، دار الفصحىٰ للطباعة والنشر، ١٩٧٧م.

(٢٠) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢١) الفروق اللغوية. العسكري، أبو هلال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ت حسام الدين القدسي.

(٢٢) الفكرة الجيولوجية عن الجبال في القرآن. النجار، د. زغلول، إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

(٢٣) القاموس المحيط. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق: مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الخوارزمي، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢٥) لسان العرب. لابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

(٢٦) مبادئ الجغرافيا الطبيعية.بحيري، د.صلاح الدين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

(٢٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. لابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٢٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. عبد الباقي، محمد فؤاد، دار الحديث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٢٩) مفتاح العلوم. السكاكي، أبو يعقوب يوسف، ت د. عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣٠) المفصل في علوم البلاغة العربية. العاكوب، د. عيسىٰ علي، دار القلم، ط٢، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

*** المواقع الإلكترونية:**

(١) موقع إسلاميات
http://islamiyyat.3abber.com
(٢) موقع المعهد الإسلامي للدراسات الاستراتيجية المعاصرة
http://www.islamicforumarab.com
(٣) موقع الهيئة العالمية للكتاب والسنة
http://www.eajaz.org
(٤) موقع اليوتيوب
www.youtube.com
(٥) موقع د. رشيد الجراح
http://www.dr-rasheed.com
(٦) موقع شبكة الألوكة
http://www.alukah.net
(٧) موقع منتديات ستار تايمز
http://www.startimes.com
(٨) موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
http://quran-m.com
(٩) موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العلمي
http://www.kaheel7.com/ar

* * *

List of Sources and References

(1) The Holy Quraan.

(2) Al-Itqan fi Uloom Al-Quran. As-Siyouti, Al-Hafith Jalaluddin Bin Abdur Rahman, edited by: Muhammad Abu Al-Fadhl Ibrahim, 1st ed., Al-Asriyyah Bookstore, Saida, Beirut, 1426H/2006.

(3) Al-Bahr Al-Muheet. Abu Hayyan Al-Andalusi, Muhammad Bin Yusuf, edited by: Aadil Ahmad Abdul Mawjood, and others, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1st ed., Beirut, 1413H/1993.

(4) Basa'ir Thawi At-Tamayyuz fi Lata'if Al-Kitab Al-Aziz. Al-Fairozabadi, Majdudin Muhammad Ibn Yaaqub, edited by Muhammad Ali An-Najjar, Al-Ilmiyyah Bookstore, Beirut.

(5) Balaghat Al-Kalimah fi At-Tabeer Al-Quraani. As-Saamirraie, Dr Dadhl Saleh, 2nd ed., Dar Ammar, Amman, Jordan, 1422H/2001.

(6) At-Tahreer wa At-Tanweer. Bin Aashoor, Muhammad At-Taahir.

(7) Tafseer Ibn Katheer. Bin Katheer Al-Qurashi, Al-Imam Abi Al-Fadda' Ismaeel Ad-Dimashqi, Dar Al-Fikr, Beirut, Lebanon, 1401H/1981.

(8) At-Tafseer Al-Bayani lima fi Surat An-Nahl min Daqa'iq Al-Maani, Al-Qadoumi, Sami Wadee', Dar Al-Wadhah, Amman, Jordan.

(9) Tafseer Al-Jalalayn, Al-Muhallee wa As-Siyouti, Jalaluddin Muhammad Ahmad, Jalaluddin, introduced and commented on by: Al-Allamah Muhammad Kareem Rajih, Dar Al-Qalam, Beirut, Lebanon.

(10) At-Tafseer Al-Quraani. As-Saamirra'ie, Dr Faadhil Saleh, 4th ed., Dar Ammar, Amman, 1427H/2006.

(11) At-Tafseer Al-Kabeer, Al-Fakhr Ar-Razi, Dar Ihya At-Turath Al-Arabi, 3rd ed., Beirut, Lebanon.

(12) Tayseer Al-Kareem Ar-Rahman fi Tafseer Kalam Al-Mannan. As-Saadi, Shiekh Abdur Rahman Bin Nasir, edited and corrected by: Muhammad Zahri An-Najjar, printed and published by: The General Presidency of The Departments of Scientific Research and Ifta, Riyadh, Saudi Arabia, 1404H.

(13) Jami Al-Bayan an Ta'weel Aay Al-Quraan. At-Tabari, Al-Imam Ibn Jarir At-Tabari, edited by: Sidqi Jamil Al-Attar, Dar Al-Fikr, Beirut, Lebanon, 1415H/1995.

(14) Al-Jami li Ahkam Al-Quraan. Tafseer Al-Qurtubi, by Abi Abdillah Muhammad Bin Ahmad Al-Ansari, edited by: Abdur Razzaq Al-Mahdi, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 1418H/1997.

(15) Hawl Al-I'jaz Al-Balaghi lil Quraan. Tabl, Dr Hasan, 1st ed., Al-Eeman Bookstore.

(16) Dala'il Al-I'jaz, (Signs of Miracles). Al-Jurjani, Abdul Qahir Bin Abdur Rahman Bin Muhammad, commentary by Abi Fihr Mahmoud Muhammad Shakir, Al-Madani Press, Cairo, 3rd ed., 1413H/1992.

(17) Rooh Al-Maani fi Tafseer Al-Quraan Al-Atheem wa As-Saba' Al-mathani. Al-Aloosi, by Abi Al-Fadhl Shihabuddin As-Syed Mahmoud, edited and corrected by: Ali Abdul Bari Attiah, 1st ed., Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 1415H/1994.
(18) As-Sourah Al-Bayaniyyah fi Al-Mawrooth AL-Balaghi. Tabl, Hasan, 1st ed., Al-Eeman Bookstore, Al-mansourah, 1426H/2005.
(19) An Binaa Al-Qaseedah Al-Arabiah Al-Hadeethah, (About The Structure of The Modern Arabic Poem). Zayed, Ali Ashri, Dar Al-Fusha Printers and Publishers, 1977.
(20) Fath Al-Qadeer Al-Jami Bayn Ar-Riwayah wa Ad-Dirayah min Ilm At-Tafseer. Ash-Shawkani, Muhammad Bin Ali Bin Muhammad, Dar Al-Maarifah, Beirut, Lebanon.
(21) Al-Furooq Al-Lughawiyyah, (The Linguistic Differences). Al-Askari, Abu Hilal, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, edited by: Husamuddin Al-Qudsi.
(22) Al-Fikrah Al-Jiloojiyyah an Al-Jibal fi Al-Quraan, (A Geological Study About Mountains in The Quraan). An-Najjar, Dr Zaghlool, a publication by The Committee of Scientific Research in The Quraan and Sunnah, Islamic World Union, Makkah Al-Mukarramah.
(23) Al-Qamoos Al-Muheet. Al-Fairozabadi, Majduddin Muhammad Bin Yaaqub, edited by: Ar-Risalah Foundation, 2nd ed., Beirut, 1407H/1987.
(24) Al-Kashaf an Haqa'iq At-Tanzeel wa Uyoon Al-Aqaweel fi Wujooh At-Ta'weel. Al-Kawarizmi, Abu Al-Qasim Jaarullah Mahmoud Bin Umar Az-Zakhshari, Dar Al-Maarifah, Beirut, Lebanon.
(25) Lisan Al-Arab. By Ibn Manthoor, edited by Abdullah Ali Al-Kabeer, Muhammad Ahmad Hasbullah, Hashim Ash-Shathili, Dar Al-Maarif, Cairo.
(26) Mabadi' Al-Jughrafiya At-Tabe'iyyah, (Basics of Natural Geography), Buhairi, Dr Salahuddin, Dar Al-Fikr Al-Muaasir, Beirut, Lebanon.
(27) Al-Mathal As-Saa'ir fi Adab AL-Kaatib wa Ash-Sha'ir. By Ibn Al-Atheer, edited by: Muhammad Muhyiddin Abdul Hameed, Al-Asriyyah Bookstore, Saida, Beirut, 1411H/1990.
(28) Al-Mujam Al-Mufahras Lialfath Al-Quraan Al-Kareem. Abdul Baqi, Muhammad Fuaad, Dar Al-Hadeeth, 1408H/1988.
(29) Miftah Al-Uloom. As-Sakaki, Abu Yaaqub Yusuf. Edited by: Dr Abdul Hameed Hindawi, 1st ed., Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 1420H/2000.
(30) Al-Mufassal fi Uloom Al-Balaghah Al-Arabiah. Al-Aakoob, Dr Isa Ali, Dar Al-Qalam, 2nd ed., 1426H/2005.

Websites:

(1) The Islamiyyat website: http://islamiyyat.3abber.com
(2) The Islamic Institute For Strategic Modern Studies: http://www.islamicforumarab.com
(3) The International Quraan and Sunnah Committee: http://www.eajaz.org

(4) YouTube: www.youtube.com
(5) Dr Rasheed Al-Jarrah's website: http://www.dr-rasheed.com
(6) Al-Alookah Network: http://www.alukah.net
(7) Star Times Forum: http://www.startimes.com
(8) Encyclopedia of Scientific Miracles in The Quran and Sunnah: http://quran-m.com
(9) Al-Kaheel Encyclopedia for Scientific Research: http://www.kaheel7.com/ar

❊ ❊ ❊